(من كتاب الحجِّ وروح العبادة فيه)

(٥)

معرفة شرف الزمان والمكان

تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

لا شك أنّ الحاجَّ الراغب بإتقان حجّه، وإيقاعه على أكمل وجه، يسعى جهده للحرص على كلِّ سبب يُؤدي إلى أداء حجّه على أحسن حال، ولعل من هذه الأسباب: التعرّف على فضله، وفضل كل نسك فيه، -وقد مرّ معنا ذلك-.

وكذا فضيلة الزمان والمكان، وهذه المعرفة تجعل الحاجّ يُعظّم الزمان، ويُجلّ المكان، وتكون رحلته إلى مكة مليئة بالتعظيم، والحبِّ والشوق، وتُقبل النفس على شعائر الحجّ بانشراح صدر.

۞ أولًا: شرف الزمان.

فممّا ينبغي على الحاجّ استحضاره، وهو في حجّه: شرف الزمان الذي هو فيه.

فمن رحمة الله وفضله وإحسانه لعباده أن جعل هذا الحجّ في أشرف الأزمنة في العام، فوقوعه يكون في خير أيّام الدنيا (العشر الأوائل من ذي الحجة) وبعده أيّام التشريق، وهي أعظم الأيّام عند الله.

ولقد أقسم الله بهذه العشر الأوائل في كتابه -تنويهًا بها- وهي التي يقع فيها جلّ أعمال الحجّ، فقال -سبحانه-: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝٢﴾[1].

وفي هذه العشر (طواف القدوم، وسعي الحجّ للقارن والمفرد، وطواف وسعي العمرة للمتمتّع، وفيه يوم التروية، ويوم عرفة، وليلة مزدلفة ويوم النحر) فهي تقع في أعظم الأيّام عند الله.

ونوّه بذكر أيّام التشريق بقوله: ﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٠٣﴾[2].

---

(١) [سورة الفجر: الآيات ١-٢]

(٢) [سورة البقرة: آية ٢٠٣]

فاستحضار شـرف الزمان، واسـتصحابه طيلة أيّام الحجّ من أسـباب الزيادة في العمل الصالح، فالحـاجُّ الموفق من جعل هذا الأمر منه على بال، فاغتَنَم كلّ ساعة منه، وبادر كلّ لحظة، وسارع في كل وقت منه لاكتسـاب قربة فيه -خصوصًا وهو مُحرم- فهي الحالة التي يعظم فيه الأجر -أيضًا-.

فلـذا نُقل عن السـلف الصالح العجب العُجـاب في اغتنامهم حجّهم في العبادة.

۞ ثانيًا: شرف المكان.

لقـد فاضل اللهُ بين الأماكن والأزمنة، وهذا محضُ اختيار الله وحده لا يشاركه فيه مُشارِك، وبيّن هذا لعباده ليعتنوا به، ويهتموا له، فينتفعوا بهذه المعرفة.

ومـن الأماكن الفاضلـة التي فضّلها، بل أجلّ مـا فضّل: مكة -حرسها الله-؛

ففضّلها على سـائر البلدان، وجعل لها المكانة العالية عنده، وفي نفـوس المؤمنين، وبيانًا لهذا التفضيل، وتلك المكانة، جعل لهـا أسـماء كثيرة، فهي مكة، وبكـة، وأمُّ القـرى، والبلدُ الحرام،

والبلـدُ الأمين، والبيتُ العتيق، والبيتُ الحـرام، والقادسُ؛ لِأَنَّهَا تُطَهِّرُ مِنَ الذنوب، وَالْمُقَدَّسَةَ، وغير ذلك من الأسماء.

ومِنْ شرفها أنّ الله جعل بيته فيها، يتوجّه إليه المسلمون كل يوم خمس مرات، وأقسم بها في غير ما موطن من كتابه في آيات تُتلى إلى يوم القيامة ليعلم العباد فضلها ومكانتها وحرمتها، قال -سبحانه-:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ (١).

وقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ (٢)

وجاء ذكرها في مواطن كثيرة من كتاب الله المجيد.

وجعلها مولد خليله محمد ﷺ، ومنطلق الرسالة، وأوّل مكان نزل جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بكتاب الله على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان فيها، وكانت تجمع خيار العباد بعد النبين -الصحابة الكرام-.

وأريد منك -أيّها القارئُ الكريم- إذا كنت في مكة أن تسترجع ذكريـات بداية البعثة، ونزول الوحي فيها خلال عشـر سـنوات، وصبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وإخفاءهم الدعوة، وجهرهم

(١) [سورة التين: الآيات ١-٣]

(٢) [سورة البلد: الآيات ١-٢]

بها، وما لقوه من أذى أهلها الكفّار، وحتى تعيش بوجدانك في هذا البلد، تذكّر وأنت تقرأ آيات القرآن أو كنت تسمعها أنّها نزلت في هـذا المكان الذي أنت فيـه الآن، تذكّر عندما سـأل الكفّارُ النبيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه، فأجابهـم بقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾[1] وأنّها نزلت هنا في مكة.

وتذكّر وأنت تقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[2] أنّ هذه الآيات أجاب بها النبيُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السـفهاء مـن كفّار مكة عندما طلبـوا منه أن يعبد آلهتهم عامًا، ويعبدون الله عامًا، فكان هذا الجواب المفصلي في هذه المسألة، وغيرها من الآيات التي نزلت في مكة.

إنّ استحضار مكانة مكة لقاصدها ممّا يزيد الزائر تعظيمًا لها، ويقينًا برفعة شأنها، وقدسيتها، وجلالة قدرها، وتقديرًا لمنزلتها.

---

(١) سورة الإخلاص.

(٢) سورة الكافرون.

ومكةُ بلدٌ مبارك بمنطوق آي القرآن، يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

وقوله: ﴿بِبَكَّةَ﴾ قيل في معناها: أنّ النَّاسَ يَتَبَاكّون فِيهَا، أَيْ: يَزْدَحِمُونَ، وقيل: غير ذلك.

وقوله: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: ذا بركة، فالبركةُ محيطةٌ بها، فمن بركتها أنّ الله جعلها بلدًا آمنًا يأمنُ الناس فيه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ومن بركتها أنّ الله جعل الطعام والخيرات تأتي إليها من كل مكان، فمع أنّ مكة ليست بأرض زرعٍ إلا أنّ الثمرات لا تنقطع عنها، ومن بركاتها ما جعله الله فيها من ماء زمزم، فهي عينٌ جارية من آلاف السنين، لم تنضب أو ينقص ماؤها، وهذه -وغيرها- بركات حسية.

أمّا البركات الشرعية -وهي الأعظم، والأشرف، والأنفع للمؤمن- ما جعله اللهُ من مضاعفة أجر الصلوات فيها، فالصلاةُ في الحرم بمئة ألف صلاة، وهذا لا يوجد له مثيلٌ أبدًا في المضاعفة، بل حتى الصلاة في مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كانت بألف صلاة

(١) [سورة آل عمران: آية ٩٦]

إلا أنّ البوْن بين المضاعفة شاسعًا -كما ترى- فلذا حريٌّ أن يجعل العبدُ لنفسه أزمنة يبقى فيها في مكة اغتنامًا لهذا الأجر العظيم، وأن لا ينقطع عنها قدْر استطاعته، وكثيرٌ من الأخيار يتعاهدون زيارتها، ولا يُطيلون الانقطاع عنها، اغتنامًا لهذا الفضل الكبير.

ومن بركة مكة ما جعلها من عبادات لا تكون إلا فيها، ففيها عبادة الطواف والسعي، وهذا الطواف يكون تارة في الحجِّ، وتارة في العمرة، وتارةً تطوّعًا.

ومن بركتها ما يُحطُّ عندها من الخطايا والآثام ومغفرة الذنوب، وغير ذلك من البركة التي لا حصر لها.

إنّ استقبال عبادة الحجّ بهذه المعرفة لجديرٌ بأن يجعل صاحبها يؤديها على أكمل وجه، وقارن بين رجلين أحدُهما أتى مكة وهو مُعظّمٌ للزمان والمكان، فتجده خائفًا وجلًا من أن يرتكب محذورًا، أو يتجاوز حدًا، متحرّزًا من الذنوب، خائفًا من تبِعات الخطيئات، فتراه حافظًا بصره وسمعه، بل وقلبه من أن ينطوي على خطيئة أو ذنب يُبغضه الله، وترى السكينة ظاهرة على جوارحه، والخوف يسكن قلبه، والمراقبة لربه تصحبه طيلة أدائه شعائر حجّه.

إنّ هذا القسم من الحجيج سيعودون -بإذن الله- بحجّ قد هذّب سلوكهم، وأصلح أحوالهم، وازداد معه الإيمان في قلوبهم.

وبالمقابل تأمّل حال من يأتي مكة، فلا يُراعي لها حُرمة، ولا يرفع رأسًا بقداسة مكان، أوْ شرف زمان، ولا تجده متوّرعًا عن ذنب، أوْ متحرّزًا من معصية، فيُطلق لبصره العنان لينظر في النساء، ولا يحفظ سمعه عمّا حرّم الله من أغاني وموسيقى ومقاطع لا يحلّ له النظر إليها ومشاهدتها.

ولا يتورّع عن غيبة أو نميمة أو استهزاء ونحو ذلك ممّا حرّمه، ويؤثر على حجّه، فيخرج منه بأثر ضعيف، ولذا كان من عجائب بعض الحُجّاج -وهم قلة ولله الحمد- أن تجد بعضهم يُجاهر بشرب الدُخان وهو في إحرامه، بل ربما على صعيد عرفات، أو في ليلة مزدلفة.

إنّ مراعاة حرمات الله من تقوى القلوب، والحجّ فرصة لكسبها، فيكون فيه العبد تقيًّا، خائفًا، وجِلًا من ردّ عمله، أو نقص فرضه، وفوات الثواب الكامل عليه.

استحضر أنّ الفضل المترّتب على الحجِّ له قيود قد جاءت بها الأحاديث -وهو: برُّ الحجّ، والبعدُ عن المحرّمات- قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **"مَن حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ ولَدَتْهُ أُمُّهُ"**(١).

فانظر لهذه القيود (فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ) فالبعد عن الذنوب أساسًا لنيل هذا الفضل، كما هو ظاهر الحديث؛ ولئن كان المرء لا ينفك عن الخطيئة، إلا أنّه لا ينبغي له التساهل فيها، والجراءة عليها، وإذا وقع في معصية، أو حصل منه خلل، بادر إلى التوبة، ومعالجة ذلك الذنب بالاستغفار، والبعد عن الإصرار.

فيا أيّها الحاجُّ الموفق: إذا قصدت مكة فعظّم الزمان والمكان لتنتفع بهذا الفرض، وتكتسب التقوى من خلاله، فهي أيّامًا معدودات لها أثرها البيّن على صاحبها، وتُحدث تغيُّرا واضحًا على من أدّى فرضه على الكمال، وهذا من فضل الله على عباده.

❋❋❋

(١) رواه البخاري